قصة



يوسف القعيد

من يخاف كامب ديفيد

يوسف القعيد

من يخاف كامب ديفيد؟!

قصة طويلة

الفهرس

من يخاف كامب ديفيد؟! ٣

قصة يوسف القعيد الناضجة   بقلم: د. علي الراعي

١) حضرة الناظر يفتتح الحكاية.. ١٣

٢) الأستاذ متعدد الأسماء يطلب فرصة الكلام........... ٢٩

٣) الأستاذ عبد ربه يقف في المسافة بين الكلمة والفعل... ٣٥

٤) ثم يأتي المحقق لكي يحقق ولكن ليختم الحكاية......... ٣٥

٥) مؤلفات يوسف القعيد.............................. ٥٩

من يخاف كامب ديفيد؟!

قصة يوسف القعيد الناضجة

بقلم الدكتور/ علي الراعي

يبدو أن يوسف القعيد قد أتقن تماما استخدام صـيغة ابتكرها لتصوير الواقع السياسي في بلادنا تصويرا سـاخرا، هادئًا، وإن كان هدوءه لا يمنع الكاتب أن يغور في نفـوس أبطاله فيكشف خباياهم، ويعريها ويظهرها للناس. يفعل هـذا وهو يتظاهر بالبراءة، وحسن النية، ويبدو كأنما هو لا يعـي تماما مدى الغور الذي يصل إليه في تعرية الفساد السياسـي وإدانته.

قد خبرنا هذه الصيغة لأول مرة في رواية: "يحـدث في مصر الآن" وعرفنا أنها تقوم على التقاط هـذا الحـدث ورصد واقعه على الناس في بيئة محدودة هي قرية الكاتب، فإذا بهذا الحدث يكبر ويكبر وتتجمع حوله المعاني وتتركـز الأحداث، حتى تصبح القرية مصر كلها، بما فيها ومن فيها.

في: "يحدث في مصر الآن" كان هذا الحدث زيـارة نيكسون لمصر بدعوة وتهليل من السـادات ونظامـه ومـا صاحب هذه الزيارة من معونة غذائية أمريكية، كشفت طرق التصرف فيها حقيقة العلاقـات الاجتماعيـة والاقتصـادية والسياسية التي تحكم قريـة "الضـهرية". وأثبتـت أن وراء شعارات القانون وحكم المؤسسات والديمقراطية كثيرا مـن التضليل والتعتيم على واقع كان يحدث في مصـر آنـذاك: الثورة المضادة وعودة الإقطاع قديمـه وحديثـه، والحكـم البوليسي واستفحال مؤسسات الملاحقة والقمع في البلاد. في هذه القصة يتفق المحقق ومصرية وعبد ربه على الاحتجـاج ضد كامب ديفيد، ثلاثة من المواطنين نفضوا عن أنفسهم ذل الخضوع وقرروا أن يبحثوا عن بدائل لقول نعم فهناك بدائل كثيرة من العمل. ليست المغامرة.. بالضرورة – من بينهـا. هناك الرأي والمشورة والعمل المتأني الواعي.

هذا هو الإطار العام لهذه القصة الدالة، الناضـجة. وفي داخل الإطار يصنع يوسف القعيد الكثير من المواقـف والآراء والغايات.. يصور شخوصه تصويرا واقعيا.. فلـيس كل الناس في صلابة مصرية.. ولكنهم كلهم – باستثناء عبد

المنعم – المدرس الثري، وعميل السلطة، يرفضون كامب ديفيد وبدرجات متفاوتة من القوة..

بعد أن أرسل الناظر في طلب التحقيق مع مصرية كره نفسه كرها شديدا.. أما المدرسون فقد وعدوا بتدريس محاسن كامب ديفيد بغير حماس، ولمجرد متابعة للتعليمات وطلبا للسلامة.. وإذا لم يكن للمدرس عبد ربه صراحة ومبادرة مصرية، فهو مع ذلك يشجعها في السر ويوافقها على رأيها، هي واجهته والمتحدث باسمه.. غير أنه صريح في شجب كامب ديفيد.. متمسك بموقعه في البلدة النائية، مطلع على الأحداث السياسية المحلية والعالمية، لا يترك إذاعة إلا واستمع إليها.

والمحقق الشاب ما إن تجادله مصرية وتبصره بحقيقة موقفه حتى ينحاز إلى جانبها انحيازا تاما، ويصر على أن مهمته أن يثبت أقوال مصرية في محضره وأن يعقب بالرأي القانوني، وهو أنها حرة في أن تعتقد ما تشاء، وليس من حق أية جهة أن تفرض عليها رأيا.. يفعل هذا وهو واعٍ تماما لمغزى القرار وعواقبه.. فهو قد انحاز الآن إلى الثنائي المناهض لمعسكر داود وما يعنيه، ثم يأتي دور

الحديث عن الأستاذ متعدد الأسماء عبد المنعم. عن طريق المنولوج الداخلي الذي يشبه أدب الاعتراف، يطلعنا عبد المنعم على موقفه من كامب ديفيد ومن الدولة ومن الحزب ومن التنظيمات السياسية ومن مصرية وعبد ربه وأهل البلد. كل ما يعنيه من هذا كله هو شخصه وسلامته هو بالذات. كل ما يرجوه أن يبقى الحكم الحالي سنة أخرى تكفيه وزيادة. حسب دخل العمل السياسي.. عمل بنصيحة والده: "خذ ولا تعط".. تقلب عبد المنعم في التنظيمات السياسية كلها بدءا بالاتحاد القومي وانتهاء بحزب مصر الذي أنشأه السادات ثم تخلى عنه فجأة وأنشأ الحزب الوطني الديمقراطي فهرع المنتفعون ينضمون إلى الحزب الجديد..

في هذا المونولوج الداخلي الاعترافي، يحقق يوسف القعيد بنجاح واضح ما كان يصبو إليه من رمز وهو تضمين الرأي السياسي جسم العمل الفني، وتحويل التوعية السياسية إلى عمل فني مقبول كعمل فني إلى جوار تقبله كرأي سياسي.. والموقف في مونولوج كل من ناظر المدرسة. والمدرس عبد ربه يجد أن كلاً منهما يعترف اعترافات شخصية وسياسية تحمل قالب التحقيق الصحفي، ولكنه تحقيق

منسوج نسيجا عضويا كاملاً بالعمل الفني، لا ينبو عنه أبدا، ولا يذكره أي حس فني مرهف مهما بلغت درجة إرهافه.

وبهذا يخطو يوسف القعيد خطوة كبيرة نحو تخليص العمل القصصي السياسي الذي يعتمد الوثـائق – حقيقيـة أو متخيلة – من بعض ما ينوء به من أثقال، أولها تلك الوثـائق ذاتها.. محاضر تحقيق – إشـارات تليفونيـة – تحقيقـات صحفية إلى آخر ما يخبرناه في بعض أعماله السابقة مثـل: "الحداد" "أخبار عزبة المنسي".. "يحدث في مصر الآن".

الآن يستطيع يوسف القعيد أن يقول أنه بلغ هدفه في إيجاد فن سياسي تعليمي مباشر يستوعبه الفـن القصصـي استيعابا رائقًا، مريحا، بل ويرحب به ويزهو.

إن قصة: "من يخاف كامب ديفيد" مثل طيب جدا من أمثلة هذا الإيجاز الصعب.. والقصـة لهـذا جـديرة بكـل ترحيب.

د. علي الراعي

من يخاف كمب ديفيد؟!

حضرة الناظر يفتتح الحكاية

ما كنت أتصور أن الترقية ستأتي معها بكـل هـذه المتاعب. وسترمي بي، لأول مرة في حيـاتي، فـي بحـر السياسة المتلاطم. أخيرا أتى الخطاب الخاص بتعيينـي فـي مدرسة بعيدة. وكان وصولي إلى المدرسة ليلة بـدء العـام الدراسي الجديد. كان هناك الأستاذ عبد ربه. أقدم مدرسـي المدرسة. والمدرس الوحيد المقيم في هذا المكان البعيد. كان يسكن في المدرسة. أما المدرسة مصرية. وهي آنسة غريبة هي الأخرى. فتسكن في البلد نفسها مـع إحـدى العـائلات الفقيرة، باقي المدرسين وعددهم سبعة يعيشون فـي البنـادر البعيدة. كنا على شمال السما. قلت لنفسـي: ملعونـة هـذه الترقية التي أبعدتني عن الزوجة والأولاد. أليس غريبـا أن أحلام الإنسان وأمانيه أصبحت تقوده في هذا الزمـان إلـى المتاعب والهموم؟ سألت نفسي: لماذا لم أبق مدرسـا مـدى الحياة؟

الأستاذ عبد ربه استقبلني بترحيب إنسـاني صـادق وصادر من أعماقه. وفي دقائق عرفت ظروفه. قضى هنـا

ثلاثة عشر عاما من عمره. عزبا يعيش بمفرده، ويسكن في حجرة فوق سطح المدرسة.

قال لي:

- هنا توجد آخر نقطة عمران في بر مصر.

أشار إلى الناحية الأخرى وأكمل:

- إنها الصحراء وبعدها ليبيا.

شرح لي الأوضاع في البلاد. كل سكان الناحية يعملون بالتهريب من وإلى ليبيا. كما أن حالات السفر السلاكي تتم من هنا.

سألته:

- سلاكي؟!

شرح لي معنى كلمة "سلاكي". والكلمة آتية من اجتياز السلك. سلك الحدود. طريقة مختصرة. بعيدا عن الجوازات والأوراق والتأشيرات.

ها هو عبد ربه يفتح الجرح القديم. في أيام الشباب الأولى قلت لنفسي: الإعارة أو النظام. إما أن أجلس في مكتب حضرة الناظر. ثم المفتش وأخيرا المدير العام، أو أحصل على لقب معار سابق. حيث أعود من هناك وبأموال

الإعارة أفتح مدرسة خاصـة. أكـون ناظرهـا وصـاحبها ومديرها. ولولا الحظ لكان مصيري الناحية الأخـرى فـي الغرب. أو الناحية الثانية في الشرق البعيد. في تلك الـدول العربية الكثيرة. المطلة على الخليج أو المطلة على البحار أو المطلة على الرمال. أو المطلة على آبار الـذهب الأسـود. حيث أدخر ألف جنيه في الشهر الواحد. أدرس فـي النهـار وأعطي دروسا خصوصية في وقت الظهر الحار والميـت. وأتاجر عندما يجيء الليل. إنني بذلك أدخر اثنى عشر ألـف جنيه في العام الواحد. يصل المبلغ إلى ثمانية وأربعين ألـف جنيه في نهاية مدة الإعارة الأولى.

بدا لي الأستاذ عبد ربه غريبا. عزبا رغـم إشـرافه على الأربعين. جف ماء الحياة بداخله. الجلد أسمر مشـدود على العظم. والعروق تبدو واضحة تحت الجلد. يبدو أنـه لا أهل له. وأنه نسي بلدته الأصلية.

قال لي:

- مصر كلها بلادنا.

يقرأ كثيرا. ويبدو أنه من أحلام شـبابه الأولـى، أن يكون كاتبا. يحتفظ في حجرته بكمية ضـخمة مـن الكتـب

والمجلات. وفيها راديو كبير أحضره معه من اليمن عندما كان مجندا هناك. طوال النهار يقرأ. وطول الليل – والليل هنا أطول من العمر كله – تعبث أصابعه بمؤشر المحطات الأجنبية ليستمع إلى الإذاعات.

أراني الأستاذ عبد ربه حجرة خالية بجوار حجرته. قضيت فيها ليلة هادئة. وفي الليل رأيت حلم كل الليالي الماضية أجري طول الليل وراء شيء لا أعرفه، ويتحرك أسرع مني ولا ألحقه أبدا.

مع الصباح أتت المتاعب مرة واحدة. حضر مندوب من مديرية التربية والتعليم. معه خطاب مكتوب عليه "سري وعاجل وشخصي ولا يفتح إلا بمعرفة الناظر شخصيا". أخذت الخطاب من المندوب ووقعت له بالاستلام وأنا سعيد، فهذه أول مكاتبة تحضر إلي بعد المنصب الجديد. فتحت الخطاب، قرأته. أدركت أن سهولة الوصول إلى كرسي النظارة لا تعني أبدا سهولة العمل والمهمات الملقاة على عاتق من يقوم.

كان الخطاب يطلب مني، أن يكون الدرس الأول في كل الفصول عن كمب ديفيد، من زاوية تمجيدها. وإظهار ما

جرى فيها على أنه أحسن الحلول الممكنة. وأن السلام أفضل من الحرب ألف مرة. وأننا لم نأخذ من الحروب التي جرتنا إليها المطامح الفردية والبطولات الشخصية في عقد الستينيات سوى الدمار والخراب والجوع. وأنه آن الأوان أخيرا، لكي نفكر في كرامة وسعادة وراحة الإنسان المصري. وهذا لن يحدث إلا بعد مجيء السلام.

كان ذلك هو الخط العام. أما التفصيلات الصغيرة فمتروكة لنا، كان مطلوبا إرسال تقرير إلى المديرية آخر النهار بتمام تنفيذ هذه التعليمات السرية والخطيرة. كان الباقي على موعد الجرس ثلاث دقائق فقط. احترت ماذا أفعل. لو كانت لي اهتمامات سابقة بالسياسة لألقيت خطبة في طابور الصباح عن هذا الكمب ديفيد ولأرسلت بذلك تقريرا إلى المديرية و لانتهى الأمر.

لا مفر إذن من عقد اجتماع لهيئة التدريس بعد طابور الصباح مباشرة. وبدلاً من أن يكون هذا الاجتماع بغرض التعارف والاتفاق على خطة العمل. سيكون من أجل كمب ديفيد. رحت أرتب الأمور في ذهني قبل الاجتماع الهام. لقد تابعت ما كتب في صحفنا وجرائدنا – وهي

مصدري الوحيد – عن كمب ديفيد. وكلها تتكلم بلغة واحـدة ولسان واحد. ومفردات لا تتغير أبدا. كلها تهلـل وتصـفق. وتصف ما جرى هناك على أنه أعظم انتصار في التاريخ.

الحقيقة لم يقنعني هذا الكلام. فلي مقياسي الخـاص الذي أزن به الأمور. وأحاول فهمها من خلاله، وهذا المقياس يعمل بمجرد أن ترد إشارة إلى بلادنا تطالب بعـض العمـال والفلاحين والموظفين والطلاب والنساء للسفر إلـى مصـر المحروسة. أعرف على الفور أن الإشارة قادمة من إدارة لا وجود لها. في دنيا الواقع. اسمها عندي وعند الآخرين إدارة عموم المواكب والاستقبالات الرسمية. إدارة بالروح بالدم. ما إن ترد هذه الإشارة حتى أدرك فورا. أن ثمة خطأ ارتكـب والمطلوب تغطيته.

هذه المرة، كانت المبالغ الماليـة المرسـلة كثيـرة. والمكافآت سخية. والفرد الواحد حصل على ثلاثة جنيهـات. مع أن المبلغ كان في آخر استقبال نصف جنيه فقط. أي نفس المبلغ قد تم ضربه في ستة أمثاله. قفزة ما كان يحلـم بهـا إنسان. مجرد حلم. عند هذا الحد. قلت في نفسي أن الشـيء المطلوب تغطيته أكبر من كل المرات السابقة.

حدث هذا في قريتي. لهذا أصدقكم القول بمجـرد أن تسلمت الخطاب السري والهام. حتى شعرت بعدم الرضـا، سألت نفسي: لماذا يقحموننا في مثل هذه المسـائل الشـائكة والصعبة؟

ضرب الجرس. ولم يكن أحد قد حضـر بعـد مـن المدرسين، سألت الأستاذ عبد ربه عن هيئة التدريس. قال لي أن أغلبهم يسكون في البنادر ولا يحضرون إلى إذا حضـر الأتوبيس الوحيد الذي يحضرون فيه، باستثناء الآنسة مصرية وسعادة البيك الذي يمتلك سيارة خاصة يحضـر بهـا بعـد الحصة الثانية في العادة. وإن كان الأستاذ عبد ربـه يتوقـع حضوره مبكرا هذا اليوم، لأنـه اليـوم الأول فـي العـام الدراسي. ولكي يتعرف بي، وإن كان لن يكرر هذا بعد ذلك أبدا.

قال لي الأستاذ عبد ربه أنني مـا كـان يجـب أن أضرب الجرس قبل حضور المدرسين. ونحن هنا لا نضرب الجرس إلا بعد حضور المدرسين. سـألته عـن المـدرس صاحب السيارة ما هي حكايته؟ قال لي أنه غني. من أكبـر عائلات البلد. يعمل بالسياسة. يساند مـن يحكـم، شـعاره

واضح. من يتزوج أمي أقول له يا عمي، والسياسة عنده وسيلة لقضاء مصالحه لا أكثر ولا أقل. لهذا فهو يسميه الأستاذ متعدد الأسماء، والده كان وفديا قديما ثم التحق بهيئة التحرير ثم الاتحاد القومي. وأكمل هو الرسالة. أصبح أميناً للاتحاد الاشتراكي العربي، وكان صاحب أول عضوية في حزب مصر العربي الاشتراكي، وتمكن من أن يكون أمينه هنا في البلد، وما إن سمع عن النية في دفن حزب مصر العربي الاشتراكي في قبر تم إعداده له سريعا. وتشكيل غيره. حتى كان أول من استقال من حزب مصر وأدانه. وقال فيه ما قال مالك في الخمر. وهو في هذه الأيام يعيش في انتظار ما سيأتي. ويسمي هذه الأيام. أنها أيام انتظار المجهول.

أما الآنسة مصرية، فقد اكتفى الأستاذ عبد ربه بأن قال عنها، أنها واحدة من أهم الصور المشرفة في البلد كلها. وليس في المدرسة فقط. وقال لي أنه يستحسن أن أنتظر حتى أراها وأحكم عليها بنفسي.

اليوم الدراسي الأول كله متاعب. طلاب جدد. أولياء أمور. توزيع فصول. انتقال طلاب من فصل دراسي إلى

آخر. ويبدو أن الناظر السابق لم يكن يحضر كثيرا. ولم يهتم حتى بالبقاء لكي يسلمني العمل. فقد حصـل علـى إعـارة لسلطنة عمان. قيل لي أنه دفع خمسمائة جنيه حتى حصـل عليها. وما إن جاء خطاب الإعارة حتى ترك كل شيء مرة واحدة. وبدأ الاستعداد للسفر. الأستاذ عبد ربه قام بعمل كـل اللازم. وبدقة تامة. حتى جداول المدرسين قام بعملها.

في الطابور، حضرت الآنسة مصرية. فهي المسئولة عن الطابور. وقد اكتشفت وجود قدر غير عادي من الألفـة بينها وبين التلاميذ. بمجرد أن شاهدها التلاميذ حتى وقفوا في أماكنهم. وبعد أن هنأتهم بالعام الدراسي الجديد. هدر صوتها:

- صفا.

ومع الحركة ردد الطلاب:

- عرب.

صاحت:

- انتباه.

أصبح صوت الطلاب أقرب إلى الهدير:

- أحرار.

تحركت بسرعة وخشونة لا تتناسب مع أنوثتها:

- التمرين الأول.

استعداد. ابتدي.

وصلني صوت الطلاب مع حركاتهم:

- ثورة عربية.

حتى النصر.

صاحت فيهم بحماس مثير:

- التمرين الثاني:

استعداد ابتدي.

وجاء صوت الطلاب يهز المكان:

- اشتراكية.

حرية.

وحدة.

ورغم أنه اليوم الأول. ومن المفـروض أن ينسـى التلاميذ ما كانوا يفعلون منذ أربعة أشهر مضت. إلا أنه كما لو أن التلاميذ كانوا معها بالأمس فقط. حتى الطلاب الجـدد كانوا يتصرفون مثل الطلاب القدامى تماما. قلت في نفسـي، كيف يكون الدرس الأول عن كامب ديفيد والآنسة مصـرية تردد مع كل طلاب المدرسة مثل هذه الشعارات. قررت أن

أناقشها في الشعارات التي يرددها الطـلاب. إنهـا نـداءات وشعارات ممتازة ولكنها لم تعد تتمشى مع أيامنا هـذه. لقـد قيلت بحق في أيام مضت. وأخشى أن هذه الأيام التي مضت لن تعود إلينا مرة أخرى. على الأقل في حياة جيلنا المكسور الجناح. إنني شخصيا أشك في هذا.

بعد دخول الطلاب إلى فصـولهم. وبعـد تعريـف الطلاب الجدد بأماكن فصولهم. دعـوت مـن حضـر مـن المدرسين لاجتماع هام في مكتبي. بمجرد حضورهم أبلغتهم مضمون الخطاب الذي ورد من المديريـة وبـه التعليمـات الصادرة من الجهات العليا. والتي لابد من تنفيذها. قلت لهم. أن كل مدرس سيتوجه بعد هذا الاجتماع مباشرة إلى فصله. ومطلوب أن يكون الدرس الأول عما جرى في كمب ديفيـد، وشرح الانتصار العظيم الذي تم فيه.

أبدى البعض رغبة في الانصراف بـدون مناقشـة. قالوا أن ذلك يحدث كثيرا. وأنهم سينفذون التعليمـات لأنهـا تعليمات فقط. أي بدون اقتناع منهم. قررت ألا أتوقف أمـام حكاية الاقتناع هذه. أولاً لأنني جديد لا أفهم خلفيات الأمـور هنا. وليس من الذكاء الدخول فـي معركـة علـى أرض لا

أعرفها. والسبب الثاني أنني أيضا ما كنت مقتنعا بما يجري. خاصة مسألة إدخال المدارس في هذه الأمـور. إن المسـألة سلاح ذو حدين ومسألة خطيرة ما كان يجب الإقدام عليهـا. ولكن من الذي يفكر بعقله في هذه الأيام العصيبة التي تمـر بها البلاد؟ لقد شاهدت بنفسي في بلدتي – قبل الحضور إلى هنا – الجموع التي يتم نقلها لاستقبال العائد من الكمب. ولأن الطريقة كانت جديدة. والذين ينظمون الاستقبال يبدون وكأنهم ينظمون آخر استقبال لهم. فهم يريدون فعل كل شـيء وأي شيء. قلت لنفسي. لقد غاب العقل وانتهى الأمر.

كاد الاجتماع أن ينتهي لـولا أن الآنسـة مصـرية خبطت المنضدة بيدها بعصبية فاستدار لها الكل.

قالت بصوت واضح النبرات:

- أنا محتجة.

تحولت كل وجوهنا إلى علامات استفهام.

فأكملت:

- لن أدرس كمب ديفيد.

شهق بعض الحاضرين. وقبل أن ينطق أحـد قالـت مكملة:

- من قبل قلت نعم آلاف المرات. الآن من حقي أن أقول لا ولو مرة واحدة.

سألتها وأنا راغب في إنهاء الموقف:

- ولماذا هذه المرة؟

قالت فورا. وكأن الكلمات كانت تقف على شفتيها:

- الكيل طفح.

أكملت:

- من عبارة نعم هذه المرة سيخرج التتـار. ولـن يتمكن أحد من وقفهم أبدا.

عادت إلى أول كلامها:

- إن من يقول نعم ألف مرة من حقـه أن يقـول لا مرة.

الحق أنني احترمت موقفها وأعجبـت بـه. رغـم خطورة هذا الموقف علي. إنـه موقـف عظـيم ولكنـي أو ضحاياه. الحكاية خطيرة ودقيقة. هذا هو الاجتمـاع الأول. وتلك هي مهمتي الأولى هنا. لابد من الحسم. وإلا ضـاعت هيبتي من الآن وإلى الأبد.

حاولت لم الموضوع.

- إنها تعليمات يا آنسة مصرية ونحن مهنيون.

قالت بهدوء:

- تضليل.

تدخل أحد المدرسين. وسألها:

- هل ما جرى فيه عيوب؟

بدلاً من الرد عليه سألته هي:

- وهل له مزايا؟ قلها لي إذن.

في هذه الأثناء. وصل المدرس صاحب السيارة. وقد سعدت بوصوله. تصورت أن وجوده سيساعدني في هذا الموقف العصيب. ولكن ما أفزعني أن وصوله أدى إلى تألق الآنسة مصرية أكثر من الأول. أما هو فلم ينطق بحرف واحد. فكان يؤيد كلام الآنسة مصرية بهزة من رأسه ويؤيد كلامي بنفس الهزة. واكتفى بالتعقيب على كل ما قيل بنفس الهزة التي لا أعرف حتى الآن ماذا تعني بالضبط. قالت مصرية كلاما كثيرا. لم أتوقف أمامه حتى يتحرك كل مدرس إلى فصله الآن. فنحن في اليوم الدراسي الأول. وهو يكون عادة يوم مرور الكبار على المدارس. وكانت المدرسة في حالة من الفوضى الغريبة.

كان مما قالته مصرية: هل ينفع البيت الأبيض في اليوم الأسود؟ إن كمب ديفيد لا يمكن أن تكون ساعة العرب الخامسة والعشرين. ربما كانت الساعة الثالثة والعشرين؟ ربما كانت الساعة الثالثة والعشرين. وربما كانت البداية. من يدري؟

هل تعرفون ماذا جرى هناك في ذلك الصباح الذي لم يكن جميلاً أبدا. لقد تمخضت جبال كمب ديفيد فولدت فأرا. وهذا الفأر مطلوب منه أن ينطلق إلى الوطن العربي. فيفعل به ما لم يمكن فعله من قبل أبدا. وهنا كان رد الفعل هو الخضوع. ولكنه الخضوع الذي يكون على السطح فقط. ويكون عادة بوابة التمرد. حاليا لا أعرف المطلوب مني بالتحديد. هل المطلوب مناقشة الطلاب فيما جرى أو إملاء ما جاء في الخطاب السري عليهم؟ لن أملي ما جاء في الخطاب. لأنني لا أحب أن تكون علاقتي بهم سلطوية، حتى لا يشعر الطالب بالسلبية التي قد توصله في آخر طريقها إلى حالة خطيرة من اللامبالاة، التي تأكل روح الإنسان من داخلها، تجاهلت كل ما قالته. وقفت وراء مكتبي. وصرفت هيئة التدريس. كل إلى فصله. وقلت لهم أنني أبلغتهم جميعا

وسأرسل لهم صورة من الخطاب الرسمي الوارد إلي على الرغم من سريته التامة. ليوقع عليه كل منهم بالعلم. وكل فرد مسئول عن موقفه أمامي. ونحن جميعا مسئولون عن الموقف العام أمام القيادات العليا.

بعد خروجهم، تصورت أن الأمر انتهى. ولكني عند المرور على الفصول لاحظت أن بعض المدرسين أصابتهم عدوى الآنسة مصرية. ولكن رغم هذا كله. كان يمكن أن يمضي الأمر. لولا أن الفراش الخاص بمكتبي. وهو في العادة يكون رئيس السعاة في المدرسة. حضر إلى مكتبي وهمس في أذني بأمرين. جعلا الخوف يدب في قلبي. وجعلاني أتحسر من جديد على الإعارة التي هي أحسن من النظارة ألف مرة.

الأمر الأول الذي همس به الفراش، أن الآنسة مصرية لا تتحرك بمفردها أبدا. الأستاذ عبد ربه هو الذي يخطط لها. وهي التي تتصدى للأمور العامة. لأن الأستاذ عبد ربه خجول في مثل هذه المواقف. إنه يفكر جيدا. ولكن تنقصه القدرة على المواجهة في الحياة اليومية. أما الآنسة مصرية فهي مستعدة لمواجهة بلد بأكمله. وأن ما جرى اليوم

في الاجتماع بدأ من قبل بين الآنسة مصرية والأستاذ عبـد ربه، وعلى عادة جو المدارس المشتركة والتي يكـون فيهـا مدرسات ومدرسين، همست في أذن الفراش هل بينهما قصة حب؟ ولماذا لم يتزوجا؟ ضحك الرجل من سذاجتي وقال أن الحكاية ليس فيها حب ولا غيره. ولكنهما يعملان معا ضـد الحكومة.

سألته.

- معارضة؟

قال لي:

- تماما.

الأمر الآخر أن الفراش حذرني من المدرس صاحب السيارة. لأنه يعمل مع المباحث. وكلما جرى في المدرسة أو في الحزب أو في أي مكان آخر أمر له علاقة بالسياسة فهو يبقى على الحياد التام. لأن دوره الحقيقي هو تقديم تقرير عما جرى. ولهذا فمن الأفضل لي وحمايـة لظهـري. أن أتخـذ إجراء ما.قبل أن يبلغ ذلك المدرس. وفي هذه الحالة. وعندما يبلغ يجدون أنني قد فعلت اللازم.

تركني الفراش، وأخذ الفكر يروح ويجيء بي، كـان لابد من حل. بعد تفكير طويل اهتديت إلـى حـل وسـط. سأحول الآنسة مصرية للتحقيق بمعرفـة مديريـة التربيـة والتعليم. وهناك يتصرف من هم أكبر مني فـي المنصـب والمرتبة والجاه. أزحلق الأمر إلى أعلى. إن كان تصـرف الذين في الأعالي صوابا كان بها. وإن كان التصرف خطـأ فمن يستطيع محاسبة الكبار في هذه الأيام؟ كل الكبـار فـي بلادنا كتلة واحدة يحمون مصـالحهم بدقـة. وكبيـر الكبـار يتصور أن أي أمر يمس أي كبير، لا بـد وأن يصـله فـي النهاية وأنه هو المقصود به. لهذا يحمي كل بطانة الكبـار، مهما كانت درجة كبرهم.

جلست إلى مكتبي، كتبـت خطابـا إلـى المديريـة بواسطة رئيس القطاع التعليمي الذي أتبعه. وصفت فيه مـا جرى بالضبط وقلت أن ما جرى أمر خطيـر علـى أمـن المدرسة وتهديد لهيبة المدرسة. وفي النهاية أكدت أنني أرفع الأمر إلى ذوي السلطة لعمل اللازم حيال الآنسـة مصـرية وأنني في انتظار التعليمات.

وأنا أوقع الخطاب بالقلم الأحمر الذي اشتريته من أجل هذه التوقيعات عصفت بي الحيرة. قلبي مع مصرية، أحبها وأحترمها وأشعر بالضآلة أمامها. وأحسدها على هذه البطولة. ولكن عقلي مع مصالحي ومستقبلي. وخوفي من الأستاذ السمين، متعدد الأسماء صاحب السيارة، وصاحب الأزرار الذهبية في الجاكت. والخواتم الذهبية في أصابعه. والدبوس الذهبي في الكرافته. والأزرار الذهبية في القميص وكمي القميص.

أقمت المعادلة في ذهني. طموحي يقف وراء عقلي، أما القلب فلا يوجد حوله سوى ضبابيات موقف وطني يثير الإعجاب. ولكن هذا الإعجاب لا يمكن أن يتحول إلى لقمة عيش أو ترقية. قليل من الناس من يجري وراء هذه المواقف.

بعد إرسال الخطاب مع مخصوص. كرهت نفسي لحد الموت. ولم أجد لدي القدرة على مواصلة يومي الأول في النظارة. تعللت بالمرض والتعب والإرهاق. صعدت إلى غرفتي التي تقع بجوار غرفة الأستاذ عبد ربه. ما كنت متعبا في الحقيقة. ولكني كنت أخشى مقابلة الآنسة مصرية. بعد

الخطاب الذي كتبته بخط يدي ووقعته بقلمي الأحمر الجديد. قلم توقيعات النظارة، أطلب فيه تحويلها إلى التحقيق، علـى أن يتم ذلك كله اليوم.

وعلى الرغم من الـبطء ومـن الإجـراءات ومـن الروتين. إلا أنها حولت إلى التحقيق في نفـس اليـوم. بـل سافرت إلى المديرية في نفس اليوم.

الأستاذ متعدد الأسماء

يطلب فرصة الكلام

ها هي فرصتي الوحيـدة للخـلاص مـن الآنسـة مصرية، الناجحة دائما. والتي يحبها ويحترمها النـاس بـلا حدود. سأتخلص منها إلى الأبد. الحمد ، نجحت في إخراج أكبر عدد ممكن من الفلاحين. سافروا إلى مصـر للهتـاف والاستقبال والتأييد وحضور الموكب الشعبي. وفزت لنفسـي بقدر لا بأس به من المال. سينفعني في شراء التقاوي وكسوة الشتاء وربما تمكنت من تغيير السيارة.

فكرة مدير التموين هي التي أنقذت الموقف عنـدما أتت التعليمات بإخراج أكبر عدد من الناس وتـرحيلهم إلـى مصر من أجل موكب هام. كانت المرة الأولى التي يطلبون فيها الاستعداد لموكب قبل فترة زمنية من تاريخ خروجـه. وهذا ما جعلني أدرك حقيقة أن الموكب يختلف هـذه المـرة عن أية مرة سابقة.

وفي الوقت الذي وصلت فيه التعليمـات. يبـدو أن مدير التموين كان يعاني من نقص في عهدته. أو أنه تصرف في جزء منها أو اختلسه. أو استعارة. مجرد استعارة بسيطة. ولذلك اقترح علي إنزال الكميات الموجود طرفه من السـكر والزيت والأرز والدقيق. وإن توزع بدون بطاقات تموينيـة وبدون حد أقصى. وأن يبدأ التوزيع يوم إعلان نتائج كمـب ديفيد. وسيكون لهذا الإجراء وقع السحر لدى الناس. سنقول لهم، هذا هو أول الغيث فقط. والخير قادم في الطريـق لـن تكون له حدود. إن البضائع والمأكولات في الأيـام القادمـة ستسد عين الشمس. إن زمن الرخاء. يدق أبواب البلاد. هكذا قال لي مدير التموين. وعند سماعي كلمة الرخاء بدت لـي غريبة وسط الجو الذي نعيشه. وتذكرت أيام المؤتمر وشـبح الفشل وما قاله الحاقدون. أيامها كنت أخشى الخـروج مـن البيت. أو المرور على أحد، بمجرد اقترابي من مجموعـات الشباب كانوا يقولون أن الأستاذ متعـدد الأسـماء وصـل. وحكاية تعدد الأسماء تشير إلى والدي وإلي أيضا. انتقل أبي من الوفد إلى هيئة التحرير. وأكملت أنا الرحلة، قفزت مـن الاتحاد القومي إلى الاتحاد الاشتراكي العربي. يضحك الناس

هنا. لأنني قفزت أيضا من الاتحاد الاشتراكي إلى المغـابر التي ورثت هذا الاتحاد. وكنت أول المؤسسـين فـي منبـر مصر العربي الاشتراكي الذي أصبح حزب مصر بعد ذلك. ويهلك الناس هنا من كثرة الضحك لأنني أول من استقال من حزب مصر. وأول من قدم طلب عضوية في الحزب الجديد. الذي نزل به الرئيس إلى الشارع السياسي أخيـرا. قـدمت طلب العضوية حتى قبل أن يكون لهذا الحزب برنامج.

في الليل، كنت أقول لنفسي، الويل لي من الناس لـو فشل هذا المؤتمر البعيد. حقيقة لا يعنيني من هذا المؤتمر أي شيء. وذهني يتعب من تلك التفصـيلات الصـغيرة التـي أسمعها من الناس وهي تتحدث عما جرى ويجـري هنـاك. وشعاري معروف لأحيا اليوم حتى لو مت في الغد. مالي أنا وهذا الغد الذي لا أعرف عنه شيئا الآن. كل ما أطلبه أتفاق أواجه به الحاقدين هنا. أعرف أن النـاس تكرهنـي، الكـل يكرهني، ما من أحد معي أبدا. الكل ضدي. وضد كـل مـا أمثله، وعندما أقابل الكبار في الحزب أسأل: ألا يوجد أمامنا عام واحد في الحكم؟ بعض المتفائلين يقولون أنه أمامنا عشر سنوات على الأقل. نحكم فيها عباد ا   المخلصـين. أقـول

يكفيني عام واحد فقط. اثنى عشر شـهرا. ثلاثمائـة وسـتة وستون يوما. أرتب فيها أموري. أشعر بقلق غريب. كل يوم يمر علي. يشعرني أن اليوم الذي يليه لن يمر بخير أبدا. لدي إحساس ما بأن النهاية قادمة وراء هذا الغد مباشـرة. حتـى الهدوء الظاهري. يبدو أنه هدوء خداع. والذين ليسوا ضدي لا يقفون معي أبدا. ترعبني حالة اللامبالاة نحـوي ونحـو الحزب. البعض يقول لي أنت من الحكام، أنت مـن النـاس الذين فوق. ولهذا أنت أسعد حالاً من الـذين تحـت. ولكـن الشباب يقولون دائما أن الغد لهم. ونحن لن نمتلك سوى جزء صغير من اليوم. اليوم الهارب والأمس الذي أصبح ذكرى. ويتحدثون عن طوفان نوح والانتفاضة التي لن تبقي على أي شيء أبدا. لا أعرف من أين خرج لنا هؤلاء الشبان. كـانوا تلاميذي. ومع هذا لا يراعون حرمة العلم وقداسـة المعلـم. يتصرفون معي وكأنني جاسوس أو مخبر. مع أننـي أمـين اتصال الحزب الحاكم بالجماهير، ولا يعـرف أحـد الجهـد الرهيب الذي أبذله والذي بذلته من قبل حتى وصلت إلى هذا المكان. أخشى أن يتبخر هذا الانتظار. مثلمـا حـدث فـي نوفمبر من العام الماضي. لدي إحساس أن انتصارات هـذا

الزمان مثل الكحول يتبخر أثرها بعد ثوان معدودات. أتمنى أن يقف الزمان عند اللحظة التي يقولون لنا فيها أن انتصارا ما قد حدث. وأن يدوم هذا التوقف دقيقة من الوقت.

الذي يحدث في الواقع أن كل شيء يمضي. لا أعرف أين يذهب، فرح الناس الذي يتوه مثل المياه القليلة جدا في أرض عطشى، شقوقها قادرة على ابتلاع ماء النيل كله.

دخلت لعبة السياسة من نفس الباب الذي دخل منه والدي. كان والدي يقول لي خذ ولا تعطي. مش أمورك واخلق لنفسك هيبة في المنطقة وسير المراكب، فالدنيا لا أمان لها في هذه الأيام العصيبة.

ما فعلته مصرية فرصتي. وسيكون أول اتصال لي بالقيادات العليا للحزب الجديد على مستوى المحافظة، وكل جديد وله شنة ورنة. والمثل يقول أن كل غربال جديد له تعليقة. الاتصال بالقيادات الجديدة. وإدانة القيادات القديمة سيقيم علاقات وثيقة معهم. كما أن موضوع مصرية سيقيم اتصالاً بيني وبين رجال الأمن. الذين يقال أن دورهم سيكبر ويتضخم في الأيام القادمة. ما إن تهتز المقاعد تحت الحكام

حتى يصبح رجل الأمن قبل رجل السياسة. ويصبح شـعار المرحلة. الأمن أولاً والأمن ثانيا والأمـن ثالثًـا وأخيـرا. ورجال الأمن قادرون على حل أية مشكلة. سأكتب تقريـرا أقول فيه أنه توجد في البلد مؤامرة. ممولة من الخارج. وأن المدرسة هي المكان الذي تم اختياره لتنفيذ هـذه المـؤامرة، كان من المفروض أن تخرج المظاهرات ضد نظـام الحكـم لولا يقظة الحزب وقدرته على كشف المؤامرة وهـي فـي المهد. إن الخطر ليس من مصرية وحدها – سأكمل التقرير– ولكن من الأستاذ عبد ربه أيضا. إنهما من حـزب واحـد. حزب غير معلن لا وجود له في أوراق الدولة. وإن كان هذا الحزب يمثل أكبر الخطر على النظام كله. إنهما من الناحيـة الرسمية مستقلان. بمعنى أنهما ليسا عضوين في أي حـزب آخر، وإن كان اتجاههما يساريا صرفًا. وهي مسـألة بالغـة الخطورة لابد من التنبيه لها.

تبقى مسألة لن أشير لها من قريب أو بعيـد. وهـي التفاف الناس حولهما. أشـاهد الكثيـرين مـن أهـل البلـد يحضرون إلى هذا الآدمي المجنف، الذي اسمه عبد ربه لكي يحدثهم في السياسة ويفهمون منـه أمـور العـالم الصـعبة

والمعقدة. إنه لا يملك سوى ذهنه وقدرة عجيبة علـى الفهـم والتحليل والمتابعة، لا أعرف من أين يأتي هذا الكلام الـذي يقوله. ولكن الذي يثير غيظي بدون حدود، هو إيمان النـاس هنا بكل ما يقوله هذا الإنسان الذي لا أهل له. والذي يحاول أن يداري هذا العيب الأساسي بقوله أن مصر كلهـا بلـده. وحتى عندما أناقش أحد الناس هنا. وأقول له رأيا يختلف مع ما يقوله الأستاذ عبد ربه، فإن الذي يستمع إلي يقـول لـي فورا، أنه لا يمكن تصديق ما أقوله. لأن الأستاذ عبـد ربـه يقول غير هذا. والأستاذ عبد ربه لا يمكن أن يخطئ أبـدا. وهذا يجعلني أشعر بغضب لا تعبر عنه الكلمات أبدا.

أما الآنسة مصرية. والتي عشت أجمل وأحلى أحلام عمري عندما حضرت إلينا. كانت أمنيتي هي الجمـع بـين زوجتي الفلاحة صاحبة أفدنة الأرض والمدرسة الشابة. هذه زوجة وتلك عشيقة. الأولى للبيت والأولاد. والثانية لأحقـق معها ما لم أحققه في شبابي الأول.

مصرية رفضت كل محاولات التقرب إليها. نظرت لكل عروضي باحتقار مذهل. رفضت بدون مناقشـة المـال والاسم والحماية والأمان والسيارة. قلت لنفسي، لقد أخطـأت

لأني قدمت لها كل ما لدي من اللحظة الأولى. وأنا معـذور في هذا. فهي أول مدرسة تضع قدميها في البلـد. وبمجـرد حضورها اقترحت عليها الإقامة في منزل مغلـق. نمتلكـه ونستعمله كمضيفة في بعض الأوقات القليلة. رفضت السكنى في البيت. رغم أنه لم يكن في نيتي الحصول علـى إيجـار منها. فضلت على المضيفة. بيوت الفلاحين القذرة، التـي لا توجد فيها كهرباء أو مياه نقية واندست بعد هذا فـي حيـاة الناس. إنها فتاة، وهذا أعطاها فرصة الـدخول إلـى عـالم الحريم في القرية. وهو العالم الذي عجز الكل عـن التسـلل إليه.

في البداية، قلت أن الحكاية حكاية وقت فراغ فقـط. ولكنني كنت واهما عندما شممت بعـض روائـح السياسـة والأمور العامة. عدائي لهذه الآنسة مزدوج. عام وخـاص. وطني وعاطفي. والآن ليس أمامي من أمل سوى في نقلهـا من البلد فورا. مع المطالبة بأن يعين بدلاً منها مدرسة أيضا. لعل وعسى. وجود فتاة بيننا يجعل العمل محببـا. ويعطينـا الفرصة لعمل علاقات بنوع جديد من النساء.

كنت أسمع من قبل أن الممرضات والمدرسات أسهل أنواع النساء في عمل العلاقات. مصرية خيبت الظن وهدمت القول من أساسه. أقول لنفسي الآن. إن مضـى العمـر دون عمل علاقة أخرى. سيمضي العمر نفسه بدون معنى.

أكثر ما يحيرني في الأمر هو علاقتها بالمجذف عبد ربه. لا يمكنني أن أجزم إن كانت بينهما علاقة حـب أم لا. وإن كان هناك تفاهم غريب بينهما حول كل أمـور الحيـاة اليومية. أملي الوحيد هو ضبطهما معا. وعلى انفراد في أي مكان. تلك هي الفرصة المناسبة لطردهما من البلد معا. وفي وقت واحد. دون أن ينالا شرف الاخـتلاف السياسـي مـع الدولة.

في الحقيقة، أنا أحسدهما لأنهما مختلفان. والناس هنا تتولاها حالة من الإعجاب الغريب بكل من يختلف معنا. لدي إحساس بأن كل ما بين الآنسة مصرية والمجذف عبد ربه هو مجرد حالة من التوافق الفكري. وإن الأمر لم يصل بعد إلى العاطفة وما وراء العاطفة والحب. ولكن هل يحدث التوافـق الفكري فقط بين رجل على أبواب الكهولة وبين فتاة صغيرة بالغة الروعة والجمال والحضور والتألق. هي فلاحـة فـي

الأصل. ولكن سنوات التعليم هذبتها وحولتها إلى واحدة من بنات البنادر. فيها جمال نادر لم أره من قبل.

يبقى موقف الناظر. إنه شاب وغامض في نفس الوقت. ولكنه لن يقف عقبة في طريقي إلى النظارة، لسبب بسيط وهو أنه غريب عن البلد، ولابد وأن ينقل إلى بلده يوما ما. خاصة وأنه حضر إلى هنا بمفرده. ولم يحضر معه أسرته. لن أحاربه سوى في حالة واحدة. إن أرسل في طلب أولاده وأحضر أثاث بيته. في هذه الحالة فإنه ينوي الإقامة هنا بقية عمره كله. وفورا تطلق المدافع ضده. ولكن تعوزني الأدلة لكي أعصف به. سأبدأ من حادثة مصرية سأقول أنه كان على الحياد. ولم يقف معي ضد الآنسة مصرية.

خلال المعركة كان المجفف عبد ربه صامتًا. فهو شخص خجول ورغم خجله فأنا أخشى الحديث في السياسة في حضوره. لأنه إن حدث هذا. فبسرعة أصاب بحالة من الاضطراب وتنسال حبات العرق فورا. ولا أعرف بأي الكلمات أنطق. ولا أعرف متى يجب الصمت. عموما إن أكبر ما أخشاه في حياتي كلها هو مناقشة الأمور السياسية. ومن حسن حظي في الأيام الأخيرة قيام علاقة بين الأمن

والسياسة. في أيامنا هذه من الصعب الفصـل بـين الأمـن والسياسة. الطرق سالكة بين مكاتب الحزب ومباحـث أمـن الدولة والمباحث العامة. وهذا يسهل مهمتي فلا أحد يعـرف أين ينتهي العمل السياسي وأين يبدأ العمل الأمني. المسـائل مختلطة. وفي ظل هذا الاختلاط توجد فرصة عظيمة للعمل.

شعاري معروف، إن مالا يفيد في السياسة ربما كان مطلوبا في الأمن. ثم ما هو الفارق بين الأمرين. أنا نفسي لا أجد فارقًا. ألم أقل لكم من قبل أنها فرصتي الوحيـدة التـي انتظرتها طويلاً.

تحركت بسرعة. فالأمور نفسـها تتحـرك بـنفس السرعة، لأول مرة يتم تحويل شخص للتحقيق معه في نفس اليوم. بل لقد سمعت أنه من المفروض أن يصـدر القـرار النهائي في التحقيق قبل أن ينتهي اليوم نفسه.

الأستاذ عبد ربه يقف

في المسافة بين الكلمة والفعل

قل يحيا السادات ثم افعل ما تشاء بعد ذلك. ومهمـا فعلت ومهما وصل المدى من وراء أفعالك، لن يقول لك أحد أبدا البغل في الإبريق. كانت هذه هـي الوصـفة السـحرية للأستاذ عبد المنعم.

كلمتان فقط يقولهما:

- يحيا السادات.

في الأساطير والحكايات الشـعبية القديمـة. كـانوا يقولون كلمتين فقط فتحل كل المشاكل. كانوا يقولون: "افتح يا سمسم" فتتحرك الجبال وتفتح الأبواب ويصـل مـن يقـول الكلمتين إلى كنوز الأرض. وإلى كنوز السماء.

حدث هذا في أيام الشطار واللصـوص والظرفـاء وقطاع الطرق. ومع هذا لزماننا أيضا كلمتان من يجعلهمـا على طرف لسانه، قادر على إسكات ألسنة الآخرين. إنهمـا خاتم سليمان الذي اخترعه لصوص زماننا:

- يحيا السادات.

وفي الزمن القديم كانت كلمتان فقط. مع أن لصوص الزمان القديم كانت لهم قيم لا وجود لها الآن. البعض كـان يأخذ من الأغنياء لكي يعطي الفقراء.

قطاع الطرق في زمن الإقطاع وأيام النهب وليـالي السلب كانوا يعولون الكثيرين من مكسوري القلوب، ولم يكن لهم من هدف سوى قصور الإقطاعيين. عندما يسرق اللـص لصا، فإن الشريف يشعر مجالة مؤقتة من الأمان.

أما في زماننا. فلهم شعار لا أعرف من أين أتوا به. الشعار يقول: من ليس معه يؤخذ منه ومـن معـه يعطـى ويزاد.

ومن كان يتصور أن نصل في يوم إلى الحال الـذي وصلنا إليه. من كان يتصور أن يدفعنا لصوص زماننا إلـى التحسر حتى على لصوص الزمن القديم. ونصل إلى اليـوم الذي نقول فيه: أين أنتم يا قطاع طـرق أزمنـة الإقطـاع والسلب والنهب؟

عبد المنعم لا عمل له سوى القول: يحيا السـادات. وإن عاش السادات حتى آخر يوم من أيام عمر الأستاذ عبـد

المنعم. فأنا يمكنني مـن الآن أن أتصـور الوصـية التـي سيتركها لابنه من بعده. ستكون هذه الوصـية مكونـة مـن خمس كلمات فقط. وستسجل في مكتب محـامٍ وتوثـق فـي الشهر العقاري. ويكتب عليها لا تفتح إلا بعد وفاة صاحبها.

أما الوصية نفسها. فستقول:

- قل يحيا السادات ثم افعل ما تشاء.

اسمه عبد المنعم ويقول البسطاء طيبو القلوب عنـه في البلد: "عبمنعم". والذين لهم دلال عليه من لصوص البلد، يقولون له "منعم". أما باقي الذين يعرفون خفايا الأمور، فلـه عندهم لقب أساسي: الأستاذ متعدد الأسـماء. وطبعـا لـيس المقصود بذلك أسماءه الثلاثة فقط. فحكاية تعدد الأسماء هذه حكاية أخرى. الحديث عنها مثل جبال الهم فوق القلب. فضلاً عن أن هذا الحديث ربما يخرجنا من الموضوع الذي نـتكلم فيه الآن. حدثت المواجهة صباح اليوم. وهي أول مرة تجري فيها أحداث صدامية في هذه البلدة الصـغيرة منـذ سـنوات مضت. بدأت الأمور تتحرك وهذه الحركة أتت تباشيرها بعد حضور الآنسة المستحيلة مصرية إلى البلد. وعندما حضرت أنا إلى البلد منذ سنوات، بعد رحلة العودة من اليمن، وعندما

قررت البقاء هنا، حتى آخر أيام العمر، أو حتى يحدث جديد يهز كياني، يخرجني من حالتي هذه. لم أكـن أتصـور أن تحضر مدرسة للعمل هنا. وإن حضرت، فستكون زوجة أحد الزملاء المدرسين. وإن كانت آنسة وقبلت الحضور إلى هنا. فمن المؤكد أنها تعاني من عطب ما، وإلا ما هو المبرر لأن تبقى هنا، على شمال السما، بعيدة عـن الحيـاة والعمـران والأنوار الليلية.

حضرت مصرية إلى البلد وقررت البقاء فيها. كنت أتصور أن وراء ذلك سر ما. حب فاشل. أو حبيب غدر بها. أو أنها مقطوعة من شجرة. اكتشفت بعد فترة من الوقت أن كل هذه التصورات لا أساس لها في الواقـع، وأن حضـور مصرية إلى هنا هو نوع من الاختيار، وأن إصرارها علـى الاستمرار في الحياة هنا، هو موقف.

وعندما أتى موقفها من عبد المنعم ورفضها الإقامـة في المضيفة التي عرضها عليها رغم سخاء العرض ونظافة البيت، أدركت أنني أمام إنسانة سليمة، لم يصل العطب إليها أبدا، وأنها تقف على قدميها وأن قدميها تدوسان فـوق أرض صلبة.

مع مرور الوقت أصبح وجودها في المدرسـة هنـا أمرا ضروريا. لا أتصور إمكانية الحيـاة هنـا، وممارسـة التدريس اليومي بدون وجودها. أشاعت حالة مـن الـدفء الإنساني النادر. قللت من بؤس وجفاف الحياة. ما إن تقـف في الطابور صباحا حتى تشيع حالة من الفرح الإنساني فـي القلب، وتلتمع عيون الأطفال بكل الحب الذي يملأ هذا العالم.

في الفسحة أتكلم معها. في كل أمور العالم. تزغـرد الفرحة في صدري العجوز ويستيقظ القلب من نوم السنوات الطويلة. يحاول اللحاق باللحظة الطارئة. ومع هذا يبدو القلب متعبا، أما تغريد وفرحة وبكارة هذا العصفور المنطلق فـي سماء ا العالية. يقترب الآخرون منا. السعاة ثم المدرسون. يحاولون الإنصات لما نقوله. نحن نستخدم الفصحى أحيانًـا في الكلام، ولهذا قد لا يفهمون بعض ما نقولـه. وعمومـا شعارهم هنا معروف. كل مالا يفهمونه يكون ضدهم.

في الأيام التي سبقت افتتاح المدرسـة وبـدء العـام الدراسي كنت مشغولاً، أقوم بعمل الناظر غير الموجود ليـل نهار. والعمل هنا بالنسبة لي نوع من الخلاص. أضمن مـن خلال الغرق فيه كل يوم، أنه عندما ينتصف الليل أنام فورا.

حضرت الإشارة من المديرية لهم. كـان الاجتمـاع عاجلاً واستثنائيا وهاما. اجتمعوا. وفي الأيام التاليـة نزلـت الأخبار الجديدة إلى الناس كالعادة. قلـت لنفسـي إذن كـان الاجتماع من أجل أن تنزل هذه الأخبار أو الإشـاعات إلـى الناس العاديين. إن هؤلاء الناس – من يحكمـون بـلادي – يكررون أنفسهم. لا يفكرون في التجديد أو التغيير. كل شيء يعيد نفسه بطريقة مملة ومبتذلة. عشت في أيام مصنوعة من الأخبار الكاذبة. ضريبة الدفاع، وضريبة الأمن القومي اللتان تخصمان من المرتبات لن تخصما بعد اليوم. وهذا معناه أن ١٥% من المرتب وهي قيمة الضـريبتين ستضـاف إلـى المرتب. هناك علاوة اسـتثنائية ستصـرف لكـل النـاس: العاملون في الحكومة، والعـاملون بالقطـاع العـام وحتـى العاملون في القطاع الخاص، سيحصلون على علاوة قـدرها ١٠% من المرتب، بدون حد أقصى. وهذه العلاوة استثنائية بمعنى أنها لن تؤثر على العلاوة المقرر صرفها في الموعـد القادم. وبمجرد عودة الوفد من أمريكا ستصرف منحة عبارة عن مرتب شهر كامل. بالعملة الصعبة وبالدولار وأن المنحة هدية من الرئيس الأمريكي كارتر شخصيا.

سخرت من هذه الأخبار الغريبة. قلت أنه من المؤكد أنه في الطريق إلينا أمور جديدة. والأمور ليست حسـنة ولا جيدة ولا يمكن أن تكون في صالح الوطن، وإلا لما اهتمـوا كل هذا الاهتمام. ولما حـاولوا زراعـة الأرض الشـراقي بالأوهام. والمحزن أنها أرض شـراقي. أي أرض مسـتعدة لتقبل أية زراعات جديدة. حتى لو كانت المزروعات عبـارة عن الأوهام.

بالأمس كنت أقلب في أوراقي القديمة. عـادة أقـوم بها، كلما هل عام دراسي جديد. أقضي بعض الوقت اللذيـذ مع أوراق الماضي هذه. وجـدت ورقـة مكتوبـة بـاللون الأخضر والذي يتراجع من حياتنا كثيرا من هذه الأيام.

وجدت المكتوب في الورقة.

"من يقولون أنهم حماة البيت في النهار هم لصوصه عندما يلف البلاد الظلام".

توقفت أمام الكلمة. من المؤكد أنني أنا الذي كتبـت هذه الورقة التي تلخص الكثير من أمور الحياة اليومية التـي نعيشها. حاولت أن أتذكر متى كتبت هـذه الورقـة. ولكـن التذكر كان صعبا. حاولت تذكر نوع القلم. كان ذلك صـعبا.

قررت أن أثبت على كل كلمة بعد الآن التاريخ الذي كتبت فيه، كنوع من التوثيق من أجل المستقبل.

يقولون عني في البلد أنني أستمع إلى أربع إذاعات في وقت واحد. وأنه لا توجد إذاعة في أي مكان ما من العالم لا أستمع إليها. ويقولون أيضا أن الأستاذ منعم عندما سمع هذا الكلام، هاج وثار وقال أنه يستمع إلى هذه الإذاعات، وهذا صحيح، ولكن السؤال هو: هل تستمع إليه أية إذاعة من هذه الإذاعات؟ يقولون أن ثورته تصل إلى الذروة وهو يسأل، ويطلب إجابة على السؤال.

أمسكت بورقة أخرى من أوراقي. قرأت المكتوب فيها، كل المآسي تبدأ من هناك. من اللحظة التي بدأت فيها رحلة الجزر بعد فترة المد العظيمة. وهذه اللحظة هي التي بدأنا فيها الانسحاب من اليمن السعيد. كل شيء نبت من هناك، من التخلي عن النظام الجمهوري في اليمن السعيد. تلك هي الصفقة التي عقدناها معهم. والصفقات مع الأعداء خطرة. "حصار صنعاء" ما يزال يرن في أذني. لدي مادة ضخمة عن أيام الحصار. لابد من كتابتها يوما ما. في لحظة مروري الأخيرة بصنعاء تخيلت كل ما قد يحدث بعد هذا.

عشت هناك ثلاث سنوات فقط ولكن التجربة تعيش بـ داخلي بالعمق والارتفاع والطول والعرض.

في صباح اليوم الدراسي الأول كنت سعيدا. أخيـ را. ها هو شيء جديد يحدث. وناظر جديد يأتي. ما إن يمر العام حتى يكون قد نقل. طوال العام الذي يقضيه هنا. لن يكون له من عمل سوى الجري وراء أمر واحد. النقل من هذا المكان البعيد. البعض يقولون عنه أنه المنفى.

في اجتماع الناظر، عندما تكلم عـ ن كمـ ب ديفيـ د، والعائد من هناك. تحفزت أسرعت دقات القلب. وسرى النمل في أجزاء الجسم. لابد من التصرف. لابد من فعل. ها هـ ي الفرصة تصل إلي. رحت أصغي إلى ما يقال. وأنا أقوم في نفس الوقت بمحاولة صياغة الجملة التي سأنطق بها. كـ دت أن أطلب من مصرية الصمت. أن تترك لي هذه الفرصـ ة. ستكون مصيبة إن تكلمت هي. من سيأتون بعدنا قد يقولون: ألم يكن في بر مصر رجال؟ حتى تقول لا الآنسة مصـ رية. رحت أجمع الكلمة بجوار الكلمة. حتى أنطق بجملة تخـ رس هذا الناظر ولا تترك لأحد فرصة الكلام أبدا. وقبل أن تكتمل الجملة في ذهني، كانت مصرية تضرب المنضـ دة.. وكـ ان

صوتها الذي يرفض يهز أعماقي مـن الـداخل. غاصـت المرارة في روحي. وشعرت أن قلبي ينشطر إلى نصـفين. وأن الدموع الدافئة تسح في الأعماق. كنت سعيدا لأنها قالت ما كنت أود أن أقوله فعلاً. ولكن حزني كان بدون حـدود. لأن الفرصة التي تضيع لا تعود مرة أخرى أبدا. غضبت من نفسي، حسدتها. شعرت بالخجل يغطيني. هربت من النظرات التي وجهت إلي. رغم أنها كانت نظرات إنسـانية ودافئـة وفيها قدر كبير من الصدق والتعاطف معي.

في الفصل سألت نفسي: هل بقى شيء آخر أفعله بعد موقف مصرية اليوم؟ منذ سنوات وأنا أحاول تغيير عـادتي هذه. ولكني فشلت. أمي قالت في الزمان القـديم إن الطبـع يغلب التطبع. وأنا أقول في أيامي هذه: لماذا أفكر فـي كـل أمر من الأمور طويلاً قبل الإقدام على فعل ما؟

كرهت نفسي. قلت أنني لم أفعل شيئًا ما. لن أخـرج من الحجرة التي أعيش فيها فوق سطح المدرسـة. رحـت أتخيل باقي اليوم. وما يمكن أن أفعله. كنت أفكر في طريقـة أثير بها الموضوع مرة أخرى. في الفسحة أو مع النـاظر. المهم ألا يكون ذلك على انفراد. ولكن في حضور أكبر عدد

من الآخرين. قلت لنفسي لابد من فعل أي شيء اليـوم، وإلا ضاع كل شيء. سخرت من نفسي. اليوم لـيس آخـر أيـام العالم. يمكنني عمل المطلوب غدا. لمـاذا لا أخطـب فـي التلاميذ في طابور صباح الغد؟ المسـئولة عـن الطـابور متعاطفة معي. أوه. لأقل الكلام الحقيقـي. المسـئولة عـن الطابور هي التي سبقتني وفرضت علي المشي وراءها. ليكن الطريق واحدا. والهدف واحدا. ولن أغضب من الذي جرى.

تطورت الأمور. حولوا مصرية للتحقيق. والأسـتاذ منعم انصرف وقت العمل. قـال أن وراءه بعـض الأمـور الهامة. والتي لا تقبل التأجيل. معروفة هذه الأمور من الآن. ذهب ليبلغ قبل الآخرين.

عادت إلي نشوة الزمان القديم. الآن يمكنني أن أفعل. ارتبط مصيري بهذه الآنسة. حان أوان القرارات الهامة. في غرفتي رحت أفكر. هل أنتظرها. هل أبقى هكذا حتى ينجلي الموقف معها أو ماذا أفعل؟ سألت نفسي من جديـد. أيهمـا أجدى للعمل؟ طابور الغد صباحا والتلاميذ أم انتظار عـودة مصرية؟ سألت نفسي: ومن أدراني أن مصرية قد تعود إلى المدرسة؟ زلزال أصابني. وكنت أميل إلى معرفـة مصـير

مصرية أولاً، سنقف معا، سنرتبط بهذا الموقف الجديد الذي عثرنا عليه. قد يخرجنا هذا الموقف من الحالة التي نحن فيها. مصيبتي أن كل أمور العالم تبدأ في الذهن. وكل أمور العالم تنتهي داخل الذهن أيضا، حالة من حوار النفس بدون جدوى. هكذا كنت حتى الآن. وفي الليل كنت سعيدا لأنني توصلت إلى معرفة حالتي بهذا القدر من الوضوح القاسي والمؤلم.

في ذهني، كانت الجملة تستدير. تأخذ شكل السؤال الذي يطلب الإجابة.

كان السؤال يقول:

- هل بدأ زمان الفعل أخيرا؟!

ثم يأتي المحقق لكي

يحقق ولكن ليختم الحكاية

عجبت من تحويل مدرسة للتحقيق معها بهذه السرعة الغريبة. كان الخطاب الذي يطلب التحقيـق مـع المدرسـة محولاً من ناظر المدرسة التي تعمل بهـا هـذه المدرسـة. ويحمل تاريخ نفس اليوم. وكل التوقيعات الأخرى عليه تحمل تاريخ نفس اليوم. ولخطورة الأمر فإن كل مسئول وقع على الخطاب لم يكتف بذكر التاريخ، ولكنـه دون وبقلـم آخـر الساعة التي دون فيها هذا التوقيع. والأكثر غرابة أنه كـان مطلوبا مني أن أحقق في الموضوع. اسمع مقـدم التقريـر والمتهمة وشهود الإثبات وشهود النفي. وأصدر قراري فـي هذا الموضوع. قبل أن ينتهي اليوم.

المسئولون في المديرية أفهموني أنه تحقيـق إداري. أي منصب على المخالفات الإدارية الخاصة بلـوائح ونظـم العمل في المؤسسة فقط. أما الباقي من المخالفات فسـتحول إلى نيابة أمن الدولة.

قلت لهم، من المفروض أن يحول الأمر كلـه إلـى نيابة أمن الدولة من الآن ونريح أنفسنا من الأمر بكل ما فيه. قالوا لي أن ذلك خطأ فالموضوع خطير وقد يعرض علـى القيادات العليا في الدولة. ولذلك يجب علينا أن نأخذ إجـراء ما. وبعد أن نسند ظهورنا لهذا الإجراء، نحول الأمـر إلـى نيابة أمن الدولة وهي تتولى الباقي.

قلت لهم أن المدرسة بعيدة ولابد أن يمـر يـوم أو يومان قبل التمكن من إحضار أطراف القضية إلى هنـا. أم أنه المطلوب مني الانتقال إلى هذه البلدة البعيدة.

قالوا لي أن المتهمة الرئيسة في القضية. في الطريق إلينا الآن. سيارة تحملها مع مخصوص. ولابد من الانتهـاء من الموضوع طرفنا حتى الغد قد يشكل مشكلة سياسية ربما كان من الصعب التصرف فيها.

تعجبت من هذه السرعة التـي تحـدث لأول مـرة. خاصة وأن الدراسة لم تبدأ سوى اليوم فقـط. وعـادة يمـر الشهر الأول كله بدون متاعب في المدارس. قرأت القـرار المحولة به المدرسة للتحقيق. وجدت المسألة كلها سياسـية.

قلت: وما دخلي أنا بالمسائل السياسية؟ توجد في البلد جهات كثيرة تتولى مثل هذا التحقيق.

كان أغرب ما في الأمر أن المحول للتحقيـق معـه مدرسة تعد مضرب الأمثال فـي المنطقـة كلهـا. اسـمها: مصرية. رفضت الحياة في البنادر والمدن الناعمة التي يفعل الآخرون المستحيل للعمل فيها. وقررت العمل في آخر بقعة على حدود مصر. وبعدها الصحراء مباشرة كان ذهابها إلى هناك مغامرة بكل المعاني. وعندما تسلمت خطاب العمـل، وقال المدير جهزوا مكانًا آخر لها، لأنها لن تكمـل أسـبوعا هناك. والظروف كلها ضدها. ولكنها خيبت كل ظنوننا. ولم تعد من يومها أبدا. وتحولت قصة وجودها إلى أسطورة من النوع الذي نحكيه كل يوم للآخرين. ومثل يضرب لكل مـن يجري ويحضر خطابات التوصية لنقله إلى المدينة.

وفي القرية البعيدة لم تصبح مصرية مجرد مدرسة. أصبحت جزءا من الحياة اليومية. حتى الخلافـات العائليـة كانوا يذهبون بها إليها لتحلها لهم.

عندما جلست أمامي شعرت بسعادة حقيقية. الإنسان الجاد له حضور من نوع خاص. كنت سعيدا بتسـللي إلـى

حياة إنسان يختلف عنا جميعا. إنسانة صاحبة قضية.سـألت نفسي: من منا له قضية ما ارتبط بها وتدور حياته حولها؟

البعض منا قضيته طابور الجمعية. والبعض الآخـر قضيته درجة أو علاوة في الوظيفـة. والثالثـة قضـيته أن يحصل على شقة. أو أن يعثر على أنثى. أي امرأة، يطفـئ في جسدها تأجج شهوته. كل منا مربوط إلى حافـة قضـية خاصة به. ولكن من له قضية عامة؟ ذلـك هـو السـؤال. استدعيت الساعي ليحضر لها الشاي أو القهوة، فقالت ببساطة نادرة أنها لم تفطر بعد. سرى في نفسي خدر لذيذ وغريـب. أمام هذه الطريقة الجديدة في التعامل مـع الحيـاة. نحيـت الأوراق جانبا. أعدت تصفح ملف خدمة المدرسة. التقديرات فوق الممتازة الدوسيه يخلو تمامـا مـن طلبـات النقـل أو الإعارة. ويخلو من أي طلب خاص. لا يوجد فيه تظلم واحد. ولا أي جزاء سبق توقيعه عليها.

ربما كان من الواجب علي أن أقدم نفسي لكـم أولاً. في هذه الفرصة السريعة، حتى تنتهي الآنسة مصـرية مـن تناول إفطارها. أنا ابن ترزي في عاصمة المحافظة، أعمـل نهارا في المديرية. وبعد الظهر أساعد والدي فـي تفصـيل

القمصان. وعملي بعد الظهر في الدكان يجعلني حذرا جدا بعيدا عن الأمور العامة. دائما أتصور أن التفكير فيها نوع من النزف. تدور أغلب اهتماماتي حول أحلام المستقبل. والأحلام عندي لها محاور ثلاثة: الترقي في العمل. الزواج المريح. وقد خطبت منذ فترة، ولكني لم أوفق لأن الخطوبة كانت بهدف الصعود إلى أعلى أولاً. ولهذا أحسست أن الاستمرار مستحيل. وإن كنت لم أجرؤ على فسخ الخطبة لأن أهل العروسة من كبار الناس ولوالدي مصالح معهم. أما المحور الثالث من أحلام المستقبل فهو العمل في الدكان بعد الظهر.

خارج هذه الدوائر الثلاث لم تكن لي اهتمامات أبدا. انتهت الآنسة مصرية من تناول طعام الإفطار الذي أحضرته لها. كنت أنظر لها. قفزت إلى ذهني صورة خطيبتي، لا أدري سببا واحدا لذلك. بدا الفارق ضخما بين الاثنين. لو منحت فرصة لإعادة صياغة حياتي من جديد. لوضعت مصرية مكان خطيبتي التي لا يعنيها سوى البحث عن شقة. ورغم أنها من عائلة ميسورة الحال، إلا أنها تقول لي دائما. إن المليم فوق المليم يصبح قرشًا. والقرش بجوار القرش

يتحول مع الوقت إلى جنيه. وبعدد كبير ومعقول من الجنيهات نحصل على شقة بخلو في إحدى عمارات والدها.

دفعتني إلى العمل مع والدي بعد الظهر. وأغلب حديثها كان وفاة والدي وامتلاكي للمحل بعد ذلك. ما كنت راضيا عن كل هذا. ولكني كنت أقول أن الاستمرار أسهل وأفضل من هدم كل ما بنيته حتى الآن.

أعود إلى القضية. الورقة المحولة بها مصرية إلى بها توقيعات كثيرة. مقدمة في الأصل من ناظر مدرستها. وعليها تأشيرات من الموجه ورئيس القطاع ومدير التعليم. الابتدائي والمدير العام ووكيل الوزارة لشئون التعليم بالمحافظة، وأخيرا مدير الشئون القانونية. قرأت الورقة. القضية كلها سياسية. وأنا من المفروض ألا أحقق سوى القضايا المهنية فقط. كل المطلوب من هذه الإنسانة أن تدرس جيدا. وما عدا ذلك توجد في البلد شرطة ونيابة وقضاء، آلاف الأجهزة التي لا عمل لها سوى النبش في عقول وقلوب ومعتقدات الناس، وهذه الأجهزة نشطة جدا في هذه الأيام.

من قبل لم تكن لي اهتمامات بالسياسة. ولكني أقرأ بعض ما تنشره الصحف. وقد لفت نظري كثرة ما كتب في

الفترة الأخيرة عن كمب ديفيد. ولأنه ألقى القبض مؤخرا على شاب يسكن في شارعنا ويتم القبض عليه بشكل دوري. كلما مرت بالبلاد أحداث يشتم فيها احتمال حدوث هزات جماهيرية. أي بمجرد أن تقع الخشية في قلب الحاكم من المحكوم. في مثل هذه الأحوال كان يلقى القبض عليه فورا. وكنا نعرف في الشارع أن وراء الأمور أمور وأن في الطريق اضطرابات أو مظاهرات. وعندما يفرج عنه نقول أن الهدوء في الطريق إلينا. هذه الأيام ألقوا القبض عليه. وبعد ثلاثة أيام أفرجوا عنه. وكالعادة خرج ليحكي للناس كل ما جرى. يحكيه بأكبر قدر من التفصيلات، ويتعمد أثناء الحكي أن تصل كلماته لأكبر عدد من الناس. وكنت أحسده على شجاعته وعلى قدرته على متابعة مثل هذه القضايا العامة.

قال لنا أن القبض عليه هذه المرة كان مجرد إجراء وقائي.

- وقائي؟

- وحكومة هذه الأيام تقول أن قنطار وقاية خير من درهم علاج على عكس المثل القديم.

أما عن سبب القبض عليه. فقد قابلـه مسـاء يـوم القبض عليه ضابط مباحث وسأله:

- هل أنت مع كامب ديفيد أو ضدها؟

فرد على الضابط.

- كان السؤال في زمن الوطنية. أنت مع مصـر أم ضدها؟

قال له الضابط بنفاد صبر:

- لكل أوان سؤاله. وهذا هو سؤال أيامنا.

رد الشاب في سخرية:

- وهل ساويتم مصر بمعسكر داود؟

أجلت التحقيق قليلاً من الوقت، قلت للآنسة مصرية، أنني أتحدث معها بشكل شخصي. وبعيـدا عـن التحقيقـات الرسمية، فهي مواطنة وأنا مواطن، وذلك قبـل أن نكتسـب أدوارنا الاجتماعية الحالية. وقبل أن أجلس في مكان المحقق وتجلس هي على مقعد المتهمة.

سألتها:

- ألا تخافي؟

ردت بثبات:

- أخاف من ماذا؟

قلت لها:

- منهم.

قالت بصوت عميق:

- الخوف طعام سام.

ارتسمت على ملامح وجهي حالة من عدم الفهم.

أكملت مصرية:

- لا يخاف كامب ديفيد. أو ما يخرج منها – حتـى لو كانت معاهدة كاملة الأركان – إلا من ليس لديه بديل.

امتد الحديث بيننا.

- وهل لديك بديل؟

- فعلاً.

- وأين هو؟

ضحكت:

- البديل ليس معسكر آخر ولا أوراق أخرى. ولكن لدى كل منا البديل. لدينا مائة مليون بديل. قد نتوه، عن هذه البدائل بعض الوقت، ولكنها موجودة فعلاً. المهـم أن نعثـر عليها وذلك سهل جدا.

تساءلت:

- أفهم من هذا أنك عثرت على بديلك الخاص؟

اعترضت:

- ليس بشكل فردي وشخصي. من البدائل الفرديـة نصل إلى بديل جماعي. نرفض به تهاوي واستسـلام مـن استسلموا.

قلت لها.

- ولكنك تسبحين ضد التيار.

صححت كلامي:

- كل ما حدث أنني أطلب حقي في الاختلاف. مـن قبل قلت نعم كثيرا وكانوا يفرحون بها. وها هي مرة واحدة أطلب فيها الحق من أن أقول لا مرة واحدة.

قلت لها:

- أنت تعرفين ظروف بلادنا. الأمية وقـدرة النـاس على الاهتمام بالأمور المجردة لأن الإنسـان منـا، أقصـد الإنسان العادي، يبدو مشدودا إلى ساقية مطالبـه اليوميـة.. الطعام والمسكن والملبس والغد. وفي هـذه الحالـة. تبـدو

السباحة ضد التيار نوعا من الحرث في البحار والزراعة في الهواء والكتابة فوق وجه الماء. أي أنها أفعال بدون جدوى.

ردت علي بغضب حقيقي لأول مرة منذ أن جلسـنا معا:

- أحرث في البحر؟ ليكن، أزرع في الهواء؟ لا مانع لدي. أكتب فوق وجه الماء؟ موافقة، كلها مستحيلات أعرف هذا جيدا. ولكن ما هي الممكنات التي أضعتها طلبـا لهـذا المستحيل. هيه قل لي؟

انفتح الجرح بداخلي عندما سألتني:

- أنت تحقق معي؟

قلت لها.

- على الأقل.

أكملت بعد فترة:

- هذا هو المفروض.

سألتني:

- باسم من تجلس هنا.؟

وقبل أن أجيب أكملت هي بسرعة:

- باسمك شخصيا كمواطن سعيد بما جرى في كمب ديفيد، أو كمحقق في مديرية التربية والتعليم. أو جـزء مـن جهاز سياسي. حدد لي القضية لأعـرف مـن الآن حـدود المذبحة التي تدار لي.

لم أستطع الرد فورا. طلبت منها فرصـة للتفكيـر، بلعت ريقي، واحمر وجهي، وسال عرقـي، وفكـرت فـي الأمر، وطرحت على نفسي السؤال فعلاً:

- باسم من أجلس هنا؟

أنا عضو فـي الإدارة القانونيـة لمديريـة التربيـة والتعليم، ومفروض أن يقتصر عملي على الدور الذي تقـوم به المديرية وجهاز العاملين بها. أما حكاية النظام الحاكم. من قال أنني جزء منه.؟ الحكاية مرة.. في مرارة العلقـم. منـذ سنوات وأنا أحيا في هذا الوطن بدرجة شاهد عيـان. قلـت شاهد عيان، وقلتها بشكل متعمد فأنا لا أستطيع القول أننـي شاهد نفي أو شاهد إثبات، فهذا يتغير حسب الحـال. مـرة أكون شاهد إثبات وأخرى أكون شاهد نفي، حسب ما يطلبـه مني السادة إياهم. الذين يعبثون بكل ما في حياتي.

طرحت السؤال على نفسي بنفسي هذه المـرة مـن الذين أمثلهم في عملي هذا؟ الدولـة؟ الحـزب؟ الحكومـة؟ الجماهير عزلت عن كل أمور حياتها المصيرية، الخطيـرة والهامة؟ بالنسبة لي من أخذ رأيي فيما جرى وما يجري وما سيجري فوق هذه الأرض؟ من أخذ رأيي قبل وخلال وبعـد كامب ديفيد هذه؟ من وضع بـين يـدي وثائقهـا الحقيقيـة والفعلية؟ من شرحها لغيري من الناس بكل أوجه القصـور والكمال فيها أنا مواطن مصري ولكن بدرجه مفعول به. ما كنت فاعلاً في أي وقت من الأوقات أبدا. حتى فـي زمـن الحروب. حروب التحرير الوطنية، كانوا يحاربون بالنيابـة عني. هذه الجماهير في نظرهم يجب أن تكـون محكومـة. وحتى عندما يكون وجودها مطلوبا، فهو كجزء من الديكور فقط. إنني أشعر أن الدور الذي أقوم به كمالي، زائـد عـن الحاجة لا يقدم ولا يؤخر. وفي المرات القليلة التـي ذهبـت فيها إلى مؤتمر الخطب والتصفيق والتهليل والهتافات التـي تنتهي عادة بإرسال البرقيات. برقيـات المبايعـة والتأييـد بمناسبة وبدون مناسبة، حيث نقـدم فـي النهايـة شـهادات المبايعة المكتوبة بالدم، لا أعرف من أين يحضرون كل هذه

الكميات من الدماء. مع أن البلاد تشكو مـن حالـة فقـر دم مزمنة وبعد انتهاء هذه المراسيم. ينظرون إلي. يفكـرون أن يطلبوا مني الانصراف بسلام. والذهاب إلـى المنـزل، لأن المطلوب مني قمت به. وحتى ذهابي إلى هذه الأماكن كـان يتم بمقتضى الوظيفة وليس كمواطن يهتم بقضايا الوطن التي تحسم بعيدا عنه. فالعمل يعطل في هذه المناسبات. ويقولـون لنا أن من لن يذهب إلى المؤتمر أو الاستقبال سيدون غياب، وأن هناك شخصا حزبيا سيتمم علينا في السرادق أو علـى الأرصفة. ليعرف من الذي حضر ومن الـذي تغيـب ولـم يحضر.

شعرت بعطش فعلي لهذه الإنسانة الجالسة أمـامي. رغبة لا توصف في الارتواء من كلماتهـا. جمعـت أوراق التحقيق وضعتها في الدوسيه. قلت لها: لـدي رغبـة فـي الحديث معك كإنسان وإنسانة. قالت أن اللعبة قديمة. وأنهـا ليس لديها ما تخفيه. ولا تخشى قول ما عندها. فهي ضد كل ما يجري. ولكن الحوار معي لا يساوي الوقت الضائع فيـه. قلت لها أنني من قبل كنت لا مباليا. ولكنـي الآن رافـض. وهذا الرفض له أساس فكري واضح. طلبت مني عمـل أي

شيء أدلل به على هذا الرفض. كأن أمتنع عن إجراء تحقيق معها. قمت من فوري توجهت إلى مكتب وكيـل الـوزارة. متخطيا بذلك مدير الإدارة القانونية. قدمت له طلبـا كتابيـا بإعفائي من التحقيق مع الآنسة مصرية. كان لدي إصـرار على موقفي. قال وكيل الوزارة أنني عضو في حزب سري يعمل ضد الدولة. وأنني لا أصلح للمكـان الحسـاس الـذي أجلس فيه. ثم خيرني بين ثلاثة احتمالات لا رابع لها. إما أن أجري التحقيق المطلوب وفورا. أو أن أقدم اسـتقالتي مـن العمل ونسدل ستارا على القضية كلها. أو أن يحولني في هذه اللحظة إلى مباحث أمن الدولة. وإن كان لا يميل إلـى هـذا الإجراء بسبب مـا سـيقال. والمطلـوب أساسـا أن نقفـل الموضوع بهدوء.

كنت أفضل الحال الثالثة. تجربة مثيرة وعظيمة. أن ينتهي دور المحقق في حياتي ليبدأ دور المتهم على الفـور، انتقال غريب. ولكن هذا الحل سيبعدني عن مصرية، فكرت في تقديم استقالتي من العمل. ولكن الاستقالة فعل سـلبي. إن قدمتها فسيحضر زميل لي من أجل التحقيق مع مصرية. ثـم يبدأ في التحقيق معي بعد دقائق من تقـديمي الاسـتقالة. إن

تركت هذا المكان فسيأتي آخر ليحتاله ويفعل الأعاجيب. الموقف السليم أن أبقى هنا. أن أحقق مع مصرية وأن أنهي التحقيق بالرأي القانوني. أقول أن مصرية حرة في أن تعتقد ما تشاء من المعتقدات، وليس من حق أية جهة أن تفرض عليها أي رأي. وهذا الموقف سليم. فما أكثر الحديث اليومي عن الحريات العامة. حرية الفكر وحرية المعتقد وحرية القول. سأفعل هذا. وإن رفضوا قراري ستكون تلك هي نقطة البدء. فرحت بما توصلت إليه. قلت لنفسي أنني بذلك أفعل بالإيجاب وليس بالسلب، بالبقاء وليس بالانسحاب، بالعمل وليس بالهروب. سأبقى وسأفعل ما أتصور أنه الصواب.

عدت إلى مصرية أجري التحقيق معها. كنت حزينًا وأنا في الطريق إليها. سألت نفسي: هل خلت بلادنا من الرجال حتى تكون الآنسة مصرية هي أول من يقول لا؟ الأمر مهين. لي ولغيري من الرجال. الذين لا تعنيهم سوى ظروف حياتهم الخاصة. ولكني تساءلت: من يدريني. ربما كان في بلادنا الملايين الذين لهم نفس الموقف وأنا لا أدري عن مواقفهم أي شيء. بلادنا مثل البحر. السطح دائما خداع. لا يعكس مدى التوتر تحته،وفي لحظة واحدة، ربما أقل من

الثانية. يضطرب القاع ويقلب كافة الموازين. هـذا الهـدوء القشري ليس استسلاما. إنه يبدو كحالة من عدم المبـالاة، إن الناس قد تبدو وكأنها ليست ضد ما يجري ولكنهم ليسوا مـع ما يجري في نفس الوقت. وتلك أول مفردات الرفض لـدى هذا الشعب العظيم. وصلت إلى مصرية. أجريـت التحقيـق معها. وأمليت قراري الأخير على السكرتير ووقعته.

نظرت إلي مصرية وهمست.

- لقد دفعت الأمور إلى خطوة أكثر جرأة مني.

قلت لها:

- إنها مجرد الخطوة التالية لما قمت به أنت.

في الشارع قالت لي:

- علينا الآن البحث عن نقطة البدء. أول خطوة في الطريق الذي لا تعرف بدايته ولا حتى نهايته. ولكن معرفـة البداية تعني الانتصار. إن النهايات ليست هامـة. المهـم أن نبدأ.

كنت مفعما فلم أنطق أما هي فقالت:

- بين الركوع والمغامرة مسافة ضخمة من الفعـل الإنساني، يستطيع العقل إعادة خلق العـالم فيهـا. الركـوع

عرفناه وتذوقنا طعمه. طعم الهوان المباح فيه. ولكن من قال أن المغامرة هي الوجه الآخر للركوع؟ إن بينهمـا مسـافات ضخمة من الفعل، وفي هذه المسافة يجب أن تكون حركتنا. الذين ركعوا أخطئوا والمغامرون على خطأ. ويجب أن نفعل نحن في المسافة الواقعة بين الاثنين.

قالت لي مصرية:

- هناك أمر لابد وأن يحدث قبل نقطة البدء نفسها.

سألتها:

فقالت أنه هناك في البلد، حيث توجد المدرسة.

شرحت الأمر لي. قالت أننا معا – أنا وهي – يجب أن نذهب إلى الأستاذ عبد ربه أولاً. ومن هناك نبـدأ نحـن الثلاثة.

قلت لها: إذن لتكن الخطوة الأولى.

صححت كلامي:

- لا. الخطوة قبل الأولى.

أكملت الجملة:

- إذن لتكن الخطوة قبل الأولى هي الأستاذ عبد ربه ثم ننطلق نحن الثلاثة.

لا أعرف الأستاذ عبد ربه ولكني شـعرت بـدفء الآخرين. وشعرت أننا أصبحنا أقوى عنـدما انضـم إلينـا شخص ثالث.

ونحن في الطريق إليه. بدأت مصرية تحدثني عـن الأستاذ عبد ربه. وخلال تدفقها بين الجمل والكلمـات كنـت أحدثها عن خطوات المستقبل.

مؤلفات يوسف القعيد

١- الحداد رواية طبعة أولى ١٩٦٩ طبعة ثالثة ١٩٨٧.

٢- أخبار عزبة المنيسي رواية طبعة أولى ١٩٧١ طبعة ثانية ١٩٨٥ طبعة ثالثة دار سعاد الصباح القاهرة، ١٩٩٢.

ترجمت إلى الروسية والصينية واليابانية.

٣- أيام الجفاف قصة طويلة. طبعة أولى: ١٩٧٣ طبعة ثانية دار الشروق ١٩٩٢.

٤- البيات الشتوي رواية طبعة أولى: ١٩٧٤. طبعة ثانية ١٩٨٦.

٥- في الأسبوع سبعة أيام قصة طويلة. طبعة أولى ١٩٧٥ طبعه ثانية مكتبة مدبولي ١٩٩٢.

٦- طرح البحر. قصص قصيرة طبعة أولى ١٩٧٦. طبعة ثانية ١٩٩٠.

٧- يحدث في مصر الآن. رواية. طبعة أولى ١٩٧٧. طبعة رابعة ١٩٨٦.

ترجمت إلى الروسية. والعبرية.

٨- الحرب في بر مصر. رواية. طبعة أولى ١٩٧٨. طبعة خامسة ١٩٩١.

ترجمت إلى الروسية والأوكرانية والإنجليزية والفرنسية والهولندية والألمانية.

٩- حكايات الزمن الجريح قصص قصيرة. طبعة أولى ١٩٨٠. طبعة ثانية ١٩٨٧.

١٠- تجفيف الدموع. قصص قصيرة طبعة أولى ١٩٨١ طبعة ثانية ١٩٩٠.

١١- شكاوي المصري الفصيح. ثلاثية.

الجزء الأول: نوم الأغنياء طبعة أولى ١٩٨١. طبعة ثالثة ١٩٨٩.

١٢- الجزء الثاني: المزاد طبعة أولى ١٩٨٣. طبعة ثانية ١٩٨٩.

١٣- الجزء الثالث: أرق الفقراء. طبعة أولى ١٩٨٥. طبعة ثانية ١٩٨٩.

١٤- قصص من بلاد الفقراء. قصص قصيرة. طبعة أولى ١٩٨٣.

١٥- من يذكر مصر الأخرى؟ قصص قصيرة. طبعة أولى ١٩٨٤ طبعة ثانية مكتبة مدبولي ١٩٩٢.

١٦- من يخاف كمب ديفيد؟ قصة طويلة. طبعة أولى ١٩٨٥ طبعة ثانية مكتبة مدبولي ١٩٩٢.

ترجمت إلى الروسية.

١٧- الضحك لم يعد ممكنًا قصص قصيرة. طبعة أولى ١٩٨٧.

١٨- القلوب البيضاء رواية. طبعة أولى ١٩٨٧. طبعة ثانية ١٩٨٩.

١٩- بلد المحبوب رواية. طبعة أولى ١٩٨٧. طبعة ثانية دار سعاد الصباح ١٩٩٢.

٢٠- وجع البعاد. رواية. طبعة أولى ١٩٨٩ طبعة ثانية دار سعاد الصباح ١٩٩٢.

٢١- أصوات الصمت حوارات أدبية. طبعة أولى ١٩٩١.

٢٢- مرافعة البلبل في القفص. قصة طويلة. ديسمبر ١٩٩١ طبعة ثانية دار الشروق ١٩٩٣.

٢٣- من أوراق النيل – يوميـات دار سـعاد الصـباح القاهرة ١٩٩٢.